

الفصل الثاني
اليهود والسلطة والاقتصاد
في تاريخ المغرب

obeykahn.com

المبحث الأول

اليهود والسلطة الحاكمة

تقلبات العلاقة المزدوجة

السلطة واليهود والأسلمة:

كان نزوله [إدريس الأول] بوليلي في أول شهر ربيع الأول من سنة اثنين وسبعين ومائة [...] فبايعه جميع قبائل البربر وخرج بهم إلى تامسنا ففتح شلة وسائر تلك الحصون وصار إلى تادلة فافتتح حصونه إلى أن بلغ ماسة، وكان أكثر هذه البلاد [ماسة] على دين النصرانية واليهودية والمجوسية والإسلام بها قليل فأسلم جميعهم.^(١)

تأسيس المولى إسماعيل العلوي لحي خاص باليهود:

ومن تأسيساته [المولى إسماعيل العلوي] التي بها سكناهم [اليهود] الآن، أسسها عام ثلاثة وتسعين وألف ... وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وإسكانهم بالمحل المؤسس لأجلهم فسكنوه وأخلت دورهم التي كانت وسط دور المسلمين بالمدينة، ثم سكنها أهل تافيلالت الذين بفاس بأمر من السلطان.^(٢)

(١) علي الجزنائي، زهرة الأس في بناء مدينة فاس، دراسة وتحقيق وتعليق مديحة الشراوي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط. ١، ٢٠٠١، ص. ٤٥-٤٦.

(٢) عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط. ١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ج. ١، ص. ١٩٢.

اليهود في العهد المريني: القوة الاقتصادية والمناصب وأشياء أخرى:

لما استولوا [اليهود] على الصياغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة، فأدخلوا أنفسهم في الصرف والتردد لدار الضرب، وقدمهم مع ذلك الولاية والعمال لقبض المجابي والأموال في سائر الأشغال، فعظم بلاؤهم في الدين وضررهم بالمسلمين، حتى أن أحبارهم يبيحون لهم الغش، ويكذبون لهم على أنبيائهم في وجوه إباحته - وهو حرام في مذهبهم القديم - ويقولون لهم في مجالس وعظهم: اعلموا أن أبا القاسم نبي العرب قال لأمته: من غشنا فليس منا، فإن غششتم فلستم منهم، وإن لم تغشوا فأنتم منهم. وفي هذا من مجاهرة الغل والكذب ما لا يخفى.^(١)

اليهود: الولاية والخداع في عهد السلطان أبي عنان المريني:

لقد أخبرني بسنده بعض الإخوان عن الإمام القيسي إمام البيان، أن يهوديا كان يخدم السلطان أبا عنان، فبلغ ذلك من الطغيان حتى غير لبعض الصبيان شيئا من القرآن. وذلك أنه مر بصبي يستفتي في قوله تعالى: "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه"، فقال له اليهودي: "قل من يبتغ الإسلام ديناً فلن يقبل منه" فأسقط الصبي لفظة "غير"، واستفسر فأنكر عليه المعلم ذلك وقال له: "من قال لك هذا؟" فقال الصبي: "رجل مر الآن بنا" فقال له أرني إياه" فلم يزل الصبي معه حتى لقيه، فذهب المعلم من حينه لأستاذ كان السلطان يجود عليه بالخير إليه، وأخبره بالخبر، وكان السلطان يرسل للأستاذ فرسا يأتيه عليه، فلما جاءه فلما جاءه ركب وجاءه، ولم يحك له شيئا حتى أخذ في تجديد لوحه، فاتفق أنه كان فيه "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء

(١) أبو الحسن الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص ١٣٧.

بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين".

فلما قرأها السلطان قال له الأستاذ: أعد، حتى وضع السلطان اللوح من يده وخرج لصاحب السيف وقال له: إن أنا خرجت ولم أجد رأس ذلك اليهودي على يمين الطريق وجسده على شماله جعلتك في مكانه.

ثم رجع إلى موضعه وأخذ في تجديد لوحه حتى فرغ، وقام الأستاذ واتبعه السلطان يشيعه على العادة، وإذا باليهودي كما أمر. (١)

اليهود: الولاية والتعسف في عهد أبي السلطان عبد الحق المريني:

رياسة اليهوديين هرون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة:

قالوا: كان السلطان عبد الحق منذ أن أوقع ببني وطاس لم تسمح نفسه بإعطاء منصب الوزارة لأحد، ثم نما إليه أن العامة وكثيرا من الخاصة قد نقموا عليه إيقاعه بالوطاسيين، وأن أذنهم صاغية إلى محمد الشيخ صاحب آصيلا، وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما نذكر، وربما شافهه البعض منهم بذلك. فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأديبا لهم وتشفيا منهم زعموا. فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال، واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودي هرون قد ولى على شرطته رجلا يقال له: الحسين لا يألوا جهدا في العسف واستلاب

(١) المغيلي، رسالة في اليهود، ص. ٨٥-٨٦.

الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس في شدة. (١)

نكبة بني وقاصة من يهود فاس في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني:

كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح فاس وكانوا مداخلين للسلطان يوسف [بن يعقوب المريني] من صغره إلى كبره، وكانوا يتولون قهرمة داره ويقضون أموره الخاصة به ويخلصون إلى الكثير من باطن أمره، قد التحموا به التحاما وامتزجوا به امتزاجا يجالسونه في خلواته وينادمونه في أنسه، فعظم جاههم عند الحاشية لإقبال السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة، وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه إبراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الأصغر وغيرهم واستمروا على ذلك برهة من الدهر، ثم إن السلطان يوسف استفاق استفاقة والتفت إليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فأهمه أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بأمور دولته أبو محمد بن عبدالله بن أبي مدين، فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطا بهم سطوة منكرة واعتقلوا فيشعبان من سنة إحدى وسبعمئة بمعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم وأتت النكبة على حاشيتهم وأقاربهم فلم تبق منهم باقية، إلا أن السلطان استبقى منهم خليفة الأصغر احتقارا لشأنه حتى كان من قتله [...] وعبث بسائرهم وطهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها معرفة رياستهم والأمور بيد الله سبحانه. (٢)

(١) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لدول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج. ٤، ص. ٩٨.

(٢) الناصري، الاستقصا لدول المغرب الأقصى، ج. ٣، ص. ٨٠-٨١.

انتقام بني وقاصة اليهوديين من الفقيه الكاتب ابن أبي مدين ونكبتهم الثانية في عهد أبي الربيع:

كان الفقيه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني عثمان إحدى قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا بخدمة بني مرين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكان أبو محمد هذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفوض إليه في حساب الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمناجاته والإفضاء إليه بسره، ولما هلك السلطان يوسف بن يعقوب وولى بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الأقدار قدره، ثم ولى بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سلفه واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته، وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون أن نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم، وكان خليفة الأصغر منهم قد أفلت من تلك النكبة كما ذكرنا.

فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هذا بداره في بعض المهن فباشر الأمور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدين، وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه يختلي مع حرم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدرس إلى السلطان "بأن ابن أبي مدين يعرض باتهامك في ابنته وأن صدره قد وغر لذلك وأه مترصد بالدولة ومتربص بها الدوائر" فتمكنت سعائته من السلطان وظن أنه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة في الدولة ومداخلة

القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس إلى قائد جند الفرنج بقتله، فسار إليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كتبه على ذقنه واحتز رأسه وألقاه بين يدي السلطان أبي الربيع، ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدوله حسرة وأسفا، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي وأطلعه على خبثه وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدين معه إلى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب ما رمى به عنده، فتنبه السلطان لمكر اليهودي وعلم أنه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم، وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الهلكة فأصبحوا مثلا للآخرين.^(١)

أبو يوسف يعقوب المريني وابنه أبو عبد الله ... لباس اليهود بين الأحداث والإلغاء:

وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلا من العمام كلوتات [غطاء الرأس]. على أشنع صورة كأنها الرباديع تبلغ إلى تحت آذانهم، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرا من أيام ابنه أبي عبد الله، إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم. فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر، فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا—وهو سنة ٦٢١—وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه

(١) الناصري، الاستقصا، ج.٣، ص.٩٩-١٠٠.

من أفرادهم بهذا الزي وتمييزهم إياهم به، شكه في إسلامهم، وكان يقول: لو صح عندي إسلامهم لتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيثا للمسلمين، ولكني متردد في أمرهم.

ولم تتعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة، إنما اليهود عندنا يظهرن الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن، جارين على ملتنا وملتنا، والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم.^(١)

اليهود: الولاية والتعسف في عهد عبد الحق المريني:

عبد العزيز بن موسى الورياغلي: تولى الخطابة والصلاة بالقرويين سنة تسع وسبعين وثمانائة [...] ثارت العامة بفاس على يده على السلطان أبي محمد عبد الحق بن السلطان أبي سعيد المريني، فخلعوه وبايعوا لمزوار [نقيب] الشرفاء بفاس: السيد محمد بن علي بن عمران الجوطي، بسبب توليته لليهود عليهم، حتى كانوا يتحكمون في الشرفاء والفقهاء وأكابر الناس بما يريدون من الضرب والسجن وأخذ الأموال.^(٢)

(١) عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. ٢٠٠٥، ص. ٢١٧.

(٢) محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكتاني وحزمة الكتاني ومحمد الكتاني، دار الثقافة، البيضاء، ط. ١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م، ج. ٢، ص. ٩٠.

تسليم اليهود مدينة آزمور للبرتغال:

مدينة آزمور في دكالة من بناء الأفارقة على مصب أم الربيع في البحر المحيط ... يأتي التجار البرتغاليون [إليها] مرة في السنة ... حتى إنهم تمكنوا في النهاية من إقناع ملك البرتغال بالاستيلاء على المدينة، فأرسل أسطولاً يتركب من سفن عديدة، لكنه انهزم بسبب قلة خبرة القائد، وقد غرقت معظم السفن. وقد أعاد ملك البرتغال الكرة على آزمور فأرسل إليها بعد سنتين أسطولاً آخر متركباً من مائتي سفينة ... غير أنه قبل أن تبدأ المعركة مع المسيحيين بقليل، كان اليهود قد اتفقوا مع ملك البرتغال على أن يسلموا له مدينة آزمور شريطة أن لا يلحقهم منه أي أذى، ففتحوا الأبواب بموافقة الجميع. وهكذا استولى المسيحيون على آزمور، وانتقل بعض أهلها إلى السكنى بسلا، وبعضهم إلى السكنى بفاس.^(١)

الأمير يوسف بن تاشفين والاستعانة بأموال اليهود:

ولما كان في سنة أربع وستين وأربعمائة، قوي أمره [يوسف بن تاشفين]، وعظمت شوكته، فاشترى جملة من عبيد السودان، وبعث إلى الأندلس، فاشترى منها جملة من العلوج، فأركبهم، وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارساً، شراءً بهاله، ومن العبيد نحو ألفين، فأركبهم فرساناً، فغلظ حجابهم، وعظم ملكهم، وافترض على اليهود في تلك السنة فريضة ثقيلة، اجتمع له منها جملة مال، استعان به على ما كان بسبيله.^(٢)

(١) الوزان، ج. ١، ص. ١٥٧-١٥٩.

(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة الدار البيضاء، ط. ١، ١٩٧٩، ص. ٢٥.

المولى الرشيد العلوي والسيطرة على أموال ابن مشعل وحسم الصراع السياسي لصالحه:

مولاي محمد لما نهض لثغر تازة يرتقب فتح المغرب في أواخر المحرم عام ١٠٧٤ هـ فأكل زرع أهل فاس وفسد زرع الحياينة فاستغاث أهل فاس بالسلطان سيدي محمد الحاج الدلائي فخرج إليه ونزل بقرية أزرو ثم رجع مولاي محمد بن الشريف لبلده وأقام بها أياماً ثم خرج منها راجعاً لخبر وصله عن أخيه مولاي الرشيد مع أهل أنكاد والأحلاف وأنه ثار هناك واستولى على تلك الناحية وعلى كارث^(١) وما والاها وجاء يهرول حتى نزل بقرب سمسمان^(٢) ثم زحف إليهم مع صاحبه وخديمه القائد أحمد أعراص والتقى الجمعان مع أهل سمسمان فهزمهم مولاي محمد وهدم قصبتهم وفر مولاي الرشيد لحوز بني يزناسن قرب دار ابن مشعل^(٣) وذلك سنة ١٠٧٤ هـ المذكور ثم رجع لبلده ثم سمع بأخيه مولاي الرشيد كثرت عليه الجموع وأمره فيهم نافذ ومسموع زحف إليه أيضاً والتقوا بقرب سيدي بوهديّة وكانت بينهما حروب عظيمة إلى أن توفي مولانا محمد بن الشريف يوم الجمعة الثامن من محرم عام خمس وسبعين وألف ١٠٧٥ هـ.

(١) لعلها حد كرت الحالية قرب سيدي قاسم.

(٢) لعلها تمسمان بجوار بني ورياغل الريفية.

(٣) تختلف المصادر في تسميتها فاليفراني يسميها "قصة ابن مشعل" وغيره يسميها "قصر أو دار ابن مشعل"، ووقع اختلاف في تحديد موقعها ويظهر أنها مدينة مندثرة منذ أواسط القرن السادس عشر كانت ملجأً للأمرء المعزولين ثم حولها هارون بن مشعل أحد يهود دبدو الأغنياء إلى مركز مالي وتجاري بشرق المغرب... (محمد بن عبد السلام الرباطي الملقب بالضعيف، تاريخ الضعيف الرباطي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. ٢٠٠٧، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م، هامش المحقق محمد البوزيدي

الشيخي رقم ٢٦٩، ج. ٢، ص. ١٣٢٠).

وهذا ابن مشعل الذي تضاف إليه الدار يهودي كان له مال كثير وكانت له صولة على أهل الإسلام فبطش به المولاي الرشيد [...] وحصل من عنده على مال كثير فقصده أخوه مولاي محمد بن الشريف المذكور ليتزعه منه وليلا يستقل بالملك دونه فلم يقدر منه على شيء فالتقيا ووقع بينهما قتال شديد وهزم فيه مولاي محمد وقتل رحمه الله واستبد بالملك المولى الرشيد والأمر لله من قبل ومن بعد. (١)

الأمر يوسف بن علي المرابطي ومنع اليهود من المبيت في مراكش:

أغمات أيلان مدينة صغيرة في أسفل جبل درن المذكور وهي في الشرق من أغمات وريكة [...] وبينهما ستة أميال وبهذه المدينة يسكن يهود تلك وهي مدين حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها علي بن يوسف ولا تدخلها إلا نهارا وتنصرف عنها عشية وليس دخولهم في النهار إليها إلا لأمر له وخدم تختص به ومتى عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه فكانوا ينافرون المبيت بها حيطة على أموالهم وأنفسهم. (٢)

المرينيون ومحاربة غش اليهود: بين النجاح والإخفاق:

لما استولوا [اليهود] على الصياغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة، فأدخلوا أنفسهم في الصرف والتردد لدار الضرب، وقدمهم مع ذلك الولاية والعمال لقبض المجابي والأموال في سائر الأشغال، فعظم بلاؤهم في الدين

(١) تاريخ الضعيف الرباطي، ج. ٢، ص. ١٣٢-١٣٣.

- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٤هـ/

١٩٩٤م، ج. ١، ص. ٢٣٥. (٢)

وضررهم بالمسلمين، حتى أن أحبارهم يبيحون لهم الغش، ويكذبون لهم على أنبيائهم في وجوه إباحته - وهو حرام في مذهبهم القديم - ويقولون لهم في مجالس وعظهم: اعلموا أن أبا القاسم نبي العرب قال لأمته: من غشنا فليس منا، فإن غششتهم فليستهم منهم، وإن لم تغشوا فأنتم منهم. وفي هذا من مجاهرة الغل والكذب ما لا يخفى.

ولما كان سنة ست وثلثين وسبعمئة تشكى الناس بضررهم في ذلك لمولانا أمير المسلمين، كرم الله وجهه ويرد ضريحه،^(١) وثبت عنده غشهم أمر بضرب أبشارهم والشدة في نكاهم، ونفذ أمره الكريم بأن يعتمد من يقف عليه من المشتغلين والخدام وولاية القصبة وسائر الحكام بكل بلد تحت إيلائه على أن يرفعوا أيدي اليهود عن الاشتغال بالصياغة والصفرة والقبض وكل ما فيه غش للمسلمين رفعا كلياً، ولا سبيل لهم من الصياغة إلا ما كان عرياً عن الخيط واللصاق مما يكون سالماً من الدلسة والغش، ولا سبيل لهم إلى غير ذلك، كما لا سبيل لهم إلى أن يكلفوا مغرماً ولا ملزماً ولا يطلبوا بشيء من الوظائف [الضرائب] والتكاليف، ما عدا الجزية والأعشار اللازمة شرعاً لأهل الذمة. ومن تجر منهم بسوق المسلمين، وتحرف بحرفة من الحرف فيلزمه ما يلزم المسلمين في ذلك من غير حيف ولا طلب بزايد.

فلم يلبثوا إلا قليلاً ورفضوا ما أمروا ورجع الفساد في الدينار والدرهم. ولا يوجد الخارجي^(٢) والمقروض إلا بأيديهم. ورفع ذلك لمولانا المرحوم أبي عنان رحمه الله، فمنع أن يجوز من الزائف والمقروض شيئاً ولا من الخارجي،

(١) المقصود هنا أبو الحسن علي بن عثمان المريني الذي تولى الحكم عام ٧٣١هـ.

(٢) أي المضروب خارج دار الضرب، وهو أقرب إلى الزائف. (محقق الدوحة المشبكية، هامش ١،

وهم بفتح الضرب بدار السكة، فبادروه بأن التزموا ألا يبيعوا شيئاً من المصوغات من الحلي وغيره إلا بعد عرضه على أمين دار السكة، وطبع ما يقبل من ذلك، وألا ينتصب للصرف إلا من يوثق به ولا يغش المسلمين ولا يناكرهم ولا يعاملهم بالربا، وألا يعاملوا مسلماً بما أباحوه لأنفسهم من المداينات بالمطالع ولا بما أمسكوا لهم رهانا، وأن لا يدخل عندهم أحد ممن يتهم بشرب الخمر وغير ذلك من الفواحش الممنوعة شرعاً، وأن لا يبيعوا الخمر من مسلم ولا يظهرها به. وأنه إن ظهر عليهم شيء من ذلك، أو انتصب لما التزموه من الأعمال من لا يوثق به في ذلك فهم المؤاخذون والمعاقبون عليه العقاب الشديد. والتزم ذلك أشياخهم وألزموه سائر أهل جزيتهم، وأشهدوا به على أنفسهم عدول المسلمين في رسوم في رابع ذي الحجة من عام ستة وخمسين وسبعمائة.

فوقع بهؤلاء الإغفال عنهم، وسارعت أيديهم لما نهوا عنه وأخلوا بما التزموه، وتفاحش القرض في الدرهم حتى صار التعامل بالدرهم التي في الأوقية منها أحد عشر ديناراً، وفسدت المعاملات والتجارات إلى أن رحم الله المسلمين بما نفذ به الأمر الجزم من مولانا الخليفة أمير المسلمين وناصر الدين أبي فارس عبد العزيز أطال الله أيامه ونصر ألويته وأعلامه من إقامة الدين وكف أيدي المعتدين. ومنع من المعاملات بالدرهم الزائفة الناقصة، وأنه لا يتعامل إلا بالمسكوكة الوازنة الخالصة، واشتد على من يتعامل بالناقص منها لدوران الربا وفساد النقود الناشئين عنها.^(١)

(١) أبو الحسن الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص ١٣٧-١٤٠.

السلطان أبو يوسف يعقوب المريني وتغيير حرفة اليهود:

عزم قاضي فاس على التخلي عن القضاء بسبب ما ينزل به من قبلهم [اليهود] من الخدع، التي لم يجد لها وللحكم عليها نصا فطلب من السلطان أبي يوسف أن يقيه من القضاء بسبب ذلك. وذكر له أنه ليس فيهم من يومن مكره وخديعته. وأمناء الأسواق قد شغبوا بالقضاء بينهم وبين الناس وهو كذلك. فاستشار السلطان [أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني] العلماء في ذلك فقالوا لا ينقطع ذلك منهم إلا بإخراجهم من تلك الحرف ومن التجارة بالقيسارية والأسواق، وتخصهم بحرف ذنية خميلة (كذا) من الحرف التي لا يزكى صاحبها ويكون الغش فيه والخدعة خفيفين. فأمر بإخراجهم من تلك الحرف ومن التجارة بالأسواق بالقيسارية وغيرها، وخصهم بالحرف التي تناسبهم وهي تصريف الفلوس بالدراهيم (كذا) والدراهيم (كذا) بالفلوس وصنع قراشيل الصوف والحجامة والحرارة وتبقات أي بيع الإدام وبيع اللبن، لأن المحتسب تابع لهم بالوزن والكيل والتقليب والاختبار فمن غش منهم أطافه (كذا) في الأسواق. وحرفة النجارة وصنع السروج واللجم وخرابة البالي، وصنع المنطقة [أي الحزام] وخدمة الحديد، والصبغ والنحاس وصبغ الحرير والدباغة وبيع القنب وغزله وبيع الكتان وشجره. وقال لهم من أراد أن يحترف بشيء من تلك الحرف أو يتسبب فيها، فليس لأحد منعه. ومن ظهر عليه غش في تلك الحرفة، يعاقب عليه ولا يخرج منها. وعقوبته التطويق في الأسواق والتعزير بالاجتهاد. ولا يحترفون بحرفة سوى ما ذكر. فسكن المهرج بسبب إخراجهم من تلك الحرف المهمة والقيسارية، وأمن الناس من الغش

والخدع وسكتوا عن ذلك دهرا طويلا إلى آخر أيام بني مرين.^(١)

رواية الاعتداء على يهودية ونهاية الأمير يحيى الإدريسي:

لما توفي الأمير يحيى بن محمد بن الإمام إدريس رضي الله عنه الذي بني جامع القرويين في أيامه، ولي بعده ولده يحيى بن يحيى بن محمد بن الإمام إدريس، فأساء السيرة، ودخل على جارية من بنات اليهود في الحمام اسمها حنة، وكانت من أجمل نساء عصرها، فراودها عن نفسها فاستغاثت، فبادر إليه الناس منكرين لفعله، وتغير عليه أهل المدينة، فبادر إليه عبد الرحمان بن أبي سهل الجذامي، فلما رأت زوجة يحيى الحسني، وهي عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس رضي الله عنه أن زوجها يحيى بادر إليه العامة مع عبد الرحمان بن أبي سهل ليقتلوه أمرته بالفرار، ففر أمامهم من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلس، فمات بها من ليلته فقعة وندامة لما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار والخجل والفضيحة، فقام بأمر المدينة بعده عبد الرحمان بن أبي سهل، فلما علمت عاتكة أن زوجها يحيى قد مات ورأت عبد الرحمان بن أبي سهل قد ثار بالمدينة كتبت إلى أبيها علي بن عمر بن إدريس رضي الله عنه تعلمه بصنيع زوجها يحيى وموته وثورة عبد الرحمان بن أبي سهل بالمدينة بعده، وكان والدها علي بن عمر بن إدريس رضي الله عنه صاحب بلاد صنهاجة وغمارة، فلما وصله الكتاب جمع جيوشه وحشمه وقصد إلى مدينة فاس، فدخل عدو القرويين والأندلس علي عبد الرحمان بن أبي سهل الجذامي الثائر بها، فبايعه أهل المدينتين القرويين والأندلس، وخطب به على جميع منابر أعمال المغرب،

(١) مؤلف مجهول، قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، ص ٥٧-٥٩.

وانتقل الأمر من بني محمد إلى بني عمهم عمر بن إدريس الحسني^(١).

رواية اعتداء يهودي على امرأة مسلمة ونهاية السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني:

ثم إن اليهودي عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة حومة بفاس. قالوا: وكانت بدار الكومي قرب درب جنيارة فأنحنى عليها بالضرب، ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم فحمى اليهودي وكاد يتميز غيظا من سماع ذكر الرسول، وأمر بالإبلاغ في عقابها، وسمع الناس ذلك فأعظموه، وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الوريكلي وكانت له صلابة في الحق وجلادة عليه، بحيث يلقي نفسه فيالعظام ولا يبالي، وقالوا له: "ألا ترى إلى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت، فنجع كلامهم فيه وللحين أغراهم بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد فأجابوه إلى ذلك واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه، والتفت عليه خاصتهم وعامتهم، وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم، ثم تقدم الوريكلي بهم إلى فاس الجديد فصمدوا إلى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم، وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائبا في حركة له ببعض النواحي. قال في "نشر المثاني": "خرج السلطان عبد الحق بجيشه إلى جهة القبائل الهبطية وترك اليهودي يقبض من أهل فاس

(١) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٩٣-٩٤.

المغارم، فشدد عليهم حتى قبض على امرأة شريفة وأوجعها ضرباً وحكى ما تقدم، فاتصل بعد الحق الخبر وانفض مسرعاً إلى فاس واضطرب عليه أمر الجند، ففسدت نياتهم، وتنكرت وجوههم، وصار في كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم، فأيقن عبد الحق بالنكبة وعان أسباب المنية. ولما قرب من فاس استشار هرون اليهودي فيما نزل به فقال اليهودي له: "لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وإنما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون لأنها بلدنا وبها قوادنا وشيعتنا، وحينئذ يظهر لنا ما يكون" فما استتم اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بني مرين يقال له تيان، وعبد الحق ينظر، وقال: "وما زلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل بإشارتهم" ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعاً لليدين والفم". ثم قالوا للسلطان عبد الحق "تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك". فأسلم نفسه، وانتهبت محلته، وفيئت أمواله وحلت به الإهانة، وجاءوا به إلى أن أبلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد، فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج إلى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة، وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه وشكروا الله على أخذه، ثم جنب إلى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد، ثم أخرج بعد سنة ونقل إلى القلة فدفن بها وانقرضت بمهلكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده. (١)

(١) الناصري، الاستقصاء، ج.٤، ص.٩٩-١٠٠.

الأمير تميم بن زييري اليفرنى والتكليل بيهود فاس:

الأمير أبو الكمال تميم بن زييري بن يعلا الزناتي ثم اليفرنى أمير بني يفرن كلها في وقته، ملك مدينة فاس بعد هروب حمامة عنها وهزيمته، وذلك في شهر جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين وسبعمئة، فأقع فيها باليهود، فقتل منهم خلقا كثيرا يزيد على الستة آلاف يهودي، وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، وكان تميم اليفرنى رجلا مصمما في دينه الغالب عليه الجهل، وكان مولعا بجهاد بورغواطة، كان يغزوهم في كل سنة مرتين فيقتل منهم ويسبى، فلم يزل على ذلك إلى أن مات ثمان وأربعين وأربعمئة.^(١)

أبو عبد الله الفاطمي والتكليل بيهود سجلماسة وأخذ أموالهم:

يسمون [أهل سجلماسة] الكنافين عندهم المجرمين، والبنائون عندهم يهود لا يتجاوزون بهم هذه الصناعة [...] والسبب في تسخير أهل سجلماسة لليهود في هاتين الحرفتين الرذيلتين، كونهم محبين في سكنى بلدهم للإكتساب لما علموا أن التبر بها أمكن منه غيرها من بلاد المغرب لكونها باب لمعدنه، فهم يعاملون التجار ليخدعوهم بالسرقة وأنواع الخدائع، ولما علم منهم أبو عبد الله الداعي ما هم عليه من ذلك عند استخراج عبيد الله من سجن اليسع بن مدرار بها، وكان الذي نص عليه ونم به لليسع يهودي وحكى عبيد الله لأبي عبد الله ما جرى له معه، قتل منهم الأغنياء وأخذ أموالهم بالعذاب.^(٢)

(١) الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص. ١٣٨.

(٢) الإستبصار، ص. ٢٠٢.

رواية حول الأصل اليهودي لصالح بن طريف مؤسس إمارة بورغواطة
بتامسنا:

كان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم [قبائل بورغواطة] النبوة، رجلاً خبيثاً يهودي الأصل، من ولد شمعون بن يعقوب عليّة السلام، نشأ برباط من بلاد الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدري، واشتغل بالسحر، فجمع منه فنونا كثيرة، وقدم إلى المغرب فنزل بلاد تامسنا، فوجد بها قبائل من البربر جهالا، فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع، وأخذ بعقولهم واستمالهم بسحره ولسانه، وأراهم من نيرجه وتمويهاته، استغواهم بذلك وأقروا بفضله واعترفوا بولايته، فقدموه على أنفسهم، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم، ووقفوا عند أمره ونهيه، فادعى النبوة وتسمى بصالح المومنين.^(١)

اليهود يستغلون ضعف المغرب أمام الضغوط الإمبريالية الأوروبية في ق. ١٩م.

في هذه السنة [١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م] ورد يهودي من اللوندرة [لندن] على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب وذلك لأنه لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس ما دهمهم من أمر الحمايات. وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبها بيهود مصر ونحوها فكتبوا إلى يهودي من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشايل وكان هذا اليهودي قارون زمانه وكانت له وجهة كبيرة في دولة النجليز لأنها كانت تحتاج إليه فيسلفها الأموال الطائلة وله في ذلك أخبار مشهورة فكتب يهود المغرب إليه أو بعضهم يشكون

(١) القرطاس، ص. ١٦٥.

إليه ما هم فيه من الذلة والصغار ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان رحمه الله في الإنعام عليهم بالحرية فعين هذا اليهودي صهرا له للوفادة على السلطان رحمه الله في هذا الغرض وفي غيره وأصبحه هدايا نفيسة وسأل من دولة النجليز أن يشفعوا له عند السلطان ويكتبوا له في قضاء غرضة ففعلوا، وقدم على السلطان بمراكش وقدم هداياه وسأل في تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان رحمه الله عن رده مخنقا وأعطاه ظهيرا فتمسك به اليهودي يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى.^(١)

(١) الاستقصا، ج. ٩، ص. ١١٢-١١٣. وينظر نص الظهير الذي أصدره السلطان محمد بن عبد الرحمان حول منح اليهود مزيدا من الحريات، والذي أكد فيه على منح هؤلاء حقوقهم كاملة غير منقوصة في حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي (ص. ١١٣-١١٥).

obeykahn.com

المبحث الثاني اليهود والنشاط الاقتصادي

أولاً: الحرف والصنائع

١. الحرف التعدينية

رأي حول سبب امتهان اليهود لحرفة الصياغة:

كان سبب دخول أهل الذمة والصياغة والمصارفة أنه لما اتسع نطاق ملك المغرب، وسمت هممة أمرائه أن يتميز مكانهم بالأمتعة والأسلحة المصوغة من الذهب والفضة والمموهة بهما، والمكللة بالأحجار النفيسة الرفيعة، أهبه للإسلام ونكاية لعبدة الأصنام، استدعوا الصياغ من سائر الآفاق والأصقاع، واجتمع منهم جملة، وافرة فأبدعوا الصنائع العجيبة الفاخرة، فداخلهم إذ ذاك أهل الذمة من اليهود، وخادعوهم بالخدمة الظاهرة والباطنة، وسرقوا لهم صناعتهم وصياغتهم. وقدر بانقراض القادمين، ولم يرض أن يكون المسلمون أولادهم [خدما لأهل الذمة] فانفرد أهل الذمة من اليهود بصناعة الصياغة واختلفوا فيها، وأقاموا لها سوقا لأنفسهم بعد أن كانوا في الحرف الممتهنة كالصباغة والدباغة والصبارة والميارة، وأكثرهم محالين وخياطين وكيالين.^(١)

(١). أبو الحسن الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص ١٣٦-١٣٧.

كما لا يمكن لمسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يقال إن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا، ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل.^(١)

يهود فاس وصياغة الذهب والفضة:

يقع بقرب دار السكة [بفاس الجديد في العهد المريني] سوق في دكاكين الصاغة، وأمينهم هو الذي يحتفظ بقالب المعادن وأختام النقود، فلا يمكن أن يصنع بفاسخ امت أو أي شيء من الفضة والذهب إذا لم يكن المعدن مختوما بقالبه. ومن حاول بيع شيء غير مختوم عرض نفسه لخسارة كبرى، إلا أن كل شيء مختوم يباع بالسعر العادي ويمكن استعماله للأدوات مثل العملة. ومعظم الصاغة من اليهود الذين ينجزون أعمالهم بفاس الجديد ثم يحملونها إلى المدينة القديمة لبيعها في سوق معد لهم قرب سوق العطارين. ولا يمكن صياغة الذهب ولا الفضة في المدينة القديمة... ويوجد مع ذلك في المدينة القديمة بعض الصاغة الذين يصنعون الحلي لأهل المدينة فقط، ولا يربحون إلا مقدار أجر عملهم.^(٢)

يهود تدنست وحرقة الصياغة في ق. ١٦ م:

تدنست مدينة قديمة بناها الأفارقة [...] وفي المدينة بعض دكاكين التجار [...] وبعض الصاغة اليهود.^(٣)

(١) الوزان، ج. ١، ص. ٢٨٣.

(٢) الوزان، ج. ١، ص. ٢٨٣.

(٣) الوزان، ج. ١، ص. ٩٨.

يهود تيديسي وحرقتي الصياغة والحداثة في ق. ١٦ م:

تيديسي مدينة كبيرة تحتوي على أربعة آلاف كانون، أسسها الأفارقة على بعد ثلاثين ميلا من شرق ترودانت، وستين ميلا من البحر، وعشرين ميلا من الأطلس ... يمر نهر سوس بقرب المدينة على بعد ثلاثة أميال منها، وفيها عدد كثير من الصناع اليهود كصياغين وحدادين.^(١)

يهود فاس في العصر المريني: الصياغة والصرف والجباية وأشياء أخرى:

لما استولوا [اليهود] على الصياغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة، فأدخلوا أنفسهم في الصرف والتردد لدار الضرب، وقدمهم مع ذلك الولاية والعمال لقبض المجابي والأموال في سائر الأشغال، فعظم بلاؤهم في الدين وضررهم بالمسلمين، حتى أن أحبارهم يبسون لهم الغش، ويكذبون لهم على أنبيائهم في وجوه إباحته - وهو حرام في مذهبهم القديم - ويقولون لهم في مجالس وعظهم: اعلّموا أن أبا القاسم نبي العرب قال لأمته: من غشنا فليس منا، فإن غششتهم فليستهم منهم، وإن لم تغشوا فأنتم منهم. وفي هذا من مجاهرة الغل والكذب ما لا يخفى.^(٢)

يهود شيشاوة وحرقة الحداثة في ق. ١٦ م:

جبل شيشاوة [...] ينبع منه نهر يحمل اسمه، سكان هذا الجبل متوحشون ومحاربون لجيرانهم على الدوام [...] ويختلط بهم كثير من اليهود الذين يزاولون

(١) الوزان، ج. ١، ص. ١١٩.

(٢) أبو الحسن الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص. ١٣٧.

في هذه الجبال مهنة الحدادة ويصنعون المجارف والمناجل وصفائح الخيل.^(١)

يهود مائة بير بدكالة وحرقة الحدادة في ق. ١٦ م:

مدينة مائة بير في دكالة [...] لا يوجد فيها أي صانع باستثناء بعض الحدادين اليهود.^(٢)

يهود آيت داود بحاحا وتعدد الحرف في ق. ١٦ م:

آيت داود هي مدينة عتيقة بناها الأفارقة على جبل شامخ [...] في هذه المدينة عدد كثير من الصناعات اليهود من حدادين وإسكافيين وصباعين وصائغين.^(٣)

٢. حرفة البناء

يهود سجلماسة وامتهان حرفة البناء والكنافة^(٤) في العصر الوسيط:

يسمون [أهل سجلماسة] الكنافين عندهم المجرمين، والبنائون عندهم يهود لا يتجاوزون بهم هذه الصناعة [...] والسبب في تسخير أهل سجلماسة لليهود في هاتين الحرفتين الرذيلتين، كونهم محبين في سكنى بلدهم للإكتساب لما علموا أن التبر بها أمكن منه غيرها من بلاد المغرب لكونها باب لمعدنه، فهم يعاملون التجار ليخدعوهم بالسرقة وأنواع الخدائع، ولما علم منهم أبو عبيد

(١) الوزان، ج. ١، ص. ١٤٠.

(٢) الوزان، ج. ١، ص. ١٥٣.

(٣) الوزان، ج. ١، ص. ١٠٥.

(٤) الكنافة: الأعمال الخاصة بالصرف الصحي والمياه المستعملة.

الله الفاطمي سنة ٢٩٧ ما هم عليه من ذلك عند استخراج عبيد الله من سجن اليسع بن مدرار بها، وكان الذي نص عليه ونم به لليسع يهودي وحكى عبيد الله لأبي عبد الله ما جرى له معه، قتل منهم الأغنياء وأخذ أموالهم بالعذاب، وأمر من شاء أن يقيم منهم بالبلد في أن يتصرف في هاتين الخلتين، فمن دخل في الكنافين من أصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود. وقصروا البناء عليهم، خاصة لأنهم خائفون أبدا من أن يخون أحدهم المسلم فيهلكه، فهم ينصحونهم في البناء ويلازمون الخدمة دون الخروج لفرائض الصلوات ولا غير ذلك من ملازم العبادات، فتأتي خدمتهم موفرة سريعة.^(١)

يهود شيشاوة وحرفة البناء في ق. ١٦ م.

جبل شيشاوة [...] ينبع منه نهر يحمل اسمه، سكان هذا الجبل متوحشون ومحاربون لجيرانهم على الدوام [...] ويختلط بهم كثير من اليهود الذين [...] يخدمون في البناء الذي لا يفيدهم فائدة تذكر، لأن الجدران تقام بالآجر النيء والطين، وتغطي المنازل بالقش، إذ لا يوجد جير ولا قرميد ولا آجر.^(٢)

يهود تفزة حاضرة تادلا وصناعة النسيج في ق. ١٦ م.

سكان تفزة كثيرون أثرياء، وفيها نحو مائتي دار لليهود، كلهم تجار أو صناع، يقصد تفزة عدد وافر من التجار الغرباء ليشتروا منها بعض المعاطف السود التي تنسج قطعة واحدة بغطاء الرأس، ويسمى هذا اللباس البرنس،

(١) مجهول، الإستبصار، ص. ٢٠٢.

(٢) الوزان، ج. ١، ص. ١٤٠.

يباع عدد منه في إيطاليا وإسبانيا حيث يوجد بكثرة. (١)

اليهود وتزوير العملة في العصر الوسيط:

جرت العادة واستمر العرف في إمام دار السكة أن تؤخذ ذهب خمسة تتخير من أطيب النقود [...] ويتشت في طوابعها حتى تعلم أعيانها بالاختيار الصحيح، وتجمع وتسبك بمحضر شاهدي دار السكة، ويجعل بها سبيكة طول القبضة، ويطبع في وجهها بعد التعديل بطوابع دار السكة، ويجعل في جولق الأزواج. ومتى احتيج إلى غيره أخرج بمحضر الشهيدين. (٢)

ويتحفظ من احتيال اليهود لعنهم الله وخذعهم، فإنهم قد يصنعون مثاله ويرمون من يخدع في تبديله. وقد اتفق هذا من عدة أعوام بدار السكة بسكة سجلها أنه لما احتيج إلى عمل إمام لما اختاروا ذهباً طيبة اتفقوا على جودتها وسبكوها بمحضر أمينها وشاهدها. ورفع ذلك لمن يجتهد فيه، فأحضر اليهود الذين سبكوه وهددهم واستبرأ أمرهم، فاعترف أحدهم أنه أخذ عند السبك جزءاً من الفضة وجعله في جوف قطعة من الفحم الذي سبكوه به بعد ثقبها وذره فيها، ونزع من الذهب بعد ذوبه بمقدار الفضة وأتلفه بفرن السبك ولما حقق ذلك عوقب الفاعل لأجل غشه وأعيد العمل لإمام آخر. فهذه إحدى دلائل غش اليهود لعنهم الله. وينبغي أن يقصر السبك بها لمن يحسنه ويوثق به ويؤمن عليه، ولا يسمح بع لكل من أراد. (٣)

(١) الوزان، ج. ١، ص. ١٧٦-١٧٧.

(٢) المقصود الشاهدين.

(٣) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط السكة، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة، ط. ٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص. ٧٨-٧٩.

ثانيا: النشاط التجاري:

موقع اليهود في التجارة الفاسية قبل الحماية:

لقد سبق أن نبهت على أن اليهود كانوا يحتلون درجة ثانوية في الحياة الاقتصادية بفاس. وذلك واقع لا يجب الإلحاح عليه كثيرا، لأنه يمثل في القاعدة العامة لإفريقيا الشمالية. ففي تونس، والجزائر، ووهران، وطنجة كان اليهود يحتلون أهم المراكز التجارية، وعلى الأقل مراكز التجارة بالجملة والتعامل مع الخارج. وقد رأينا، بعكس ذلك، أن التجار الرئيسيين بفاس كانوا جميعا مسلمين. حقا إن التجارة الإسرائيلية كانت موجودة، لكن في درجة ثانوية وفي ميادين محدودة: بعض الدور التجارية بالجملة المتصلة بالدور اليهودية في طنجة من جهة، والتجارة اليهودية في صفرو من جهة أخرى، واحتكار فعلي لبعض المواد، كالخمور والكحول والخرداوات، والنشاط التقليدي لصرف العملة، ودور مهم في تجارة الحبوب: ذلك هو حظ اليهودي في تجارة فاس: وينتج عن ذلك أن الثروات الكبرى كانت قليلة بالملاح، وأن حظ اليهود بالتالي كان أعظم في الصناعة منه في التجارة.

يجد المرء نفسه حالا مغرى بالتفكير في أن هذا الواقع يفهم يفهم بالأرومة الإسرائيلية لعدد كثير من التجار الفاسيين. والواقع أنه يوجد من بين الأسماء التي ذكرها روني-لوكلير في قائمته للتجار الرئيسيين عدد كثير ينتمون إلى أسر من أصل يهودي: كآل الحلو، وبرادة، وكسوس، وبنيس، وبنجلون، وبنقشرون،^(١) وبنكيران، والكوهن، ويكونون نحو النصف من النخبة التجارية بفاس. لكن يجب التفكير بأن الإسلاميين اختلطوا منذ القرن الرابع

(١) أعتقد أنه وقع خطأ في الإسم، لأن المشهور عند الفاسيين بنشقرون وليس بنقشرون.

عشر (للميلاد) بالأسر ذات الأرومة الإسلامية الأصيلة ومن مختلف الأقاليم وحتى بالرقيق، وبأن الوراثة كان لها من الوقت ما يكفي لتتحول تحولا عميقا. (١)

اليهود وتجارة الخمر: تازة في القرن ١٦ م نموذجا:

تازا مدينة كبيرة لا يقل نبلها عن قوتها، وتعيش في رخاء على أرض خصبة [...] تبعد عن تقريبا عن فاس بنحو ٥٠ ميلا ... تحتل هذه المدينة الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة [...] وحول المدينة شعب تسقيه جداول ماء في غاية الجمال، وتكثر فيه بساتين تنتج كميات وافرة من ألد الثمار، وكروم تعطي محصولا طيبا من العنب الأبيض والأحمر والأسود، يعصر منه اليهود الذين لهم نحو خمسمائة دار في المدينة خمرًا. (٢)

تجارة يهود ملاح فاس في مطلع ق. ٢٠ م:

كانت التجارة في الملاح تسترجع حقوقها: فتحت قباب باب الحي يوجد نحو إثني عشر دكانا تشكل قيصرية مصغرة توجد فيها بصفة خاصة أقمشة مستوردة، وكان الزقاق الكبير محاطا بدكاكين يشبه معظمها دكاكين المدينة، إلا أن بعضها قد اكتسى، منذ ١٩٠٤، صبغة أوروبية، إذ كانت في مستوى انخفاض الزقاق، وفي سعة أكثر، وبها أحيانا حتى طاولة لبسط السلع. وكانت تباع فيها، علاوة على لوازم اللباس والمواد الغذائية المماثلة، مشروبات متخمرة (من خمر و"كاشير"، وجعة، وماء الحياة المقطر في الملاح (ماحيا) ومشروبات روحية

(١) فاس قبل الحماية، ج. ١، ص. ٦٤٨.

(٢) الوزان، ج. ١، ص. ٣٥٢-٣٥٥.

أوربية)، وكذلك أدوات البازار المستوردة من فرنسا وألمانيا، من بينها أشياء لا يمكن العثور عليها في المدينة، لأن المسلمين لا يستعملونها، كدهان الأحذية، وكربونات الكلسيوم الطبيعي، والمراجل من الحديد المصبوب، والمصافي، والكراسي، وسكاكين الأكل إلخ... وبقطع النظر عن ميولهم إلى حب التجديد فإن أصحاب الدكاكين اليهود كانوا شبيهين بزماثلهم المسلمين من جميع النواحي.

ولم يكن يوجد من بين كبار التجار اليهود من يشتغل فقط ببيع العقار، لأن أملاك الملاح كانت قليلة العدد، ولأن العلاقات بين اليهود أنفسهم كانت وثيقة جدا لدرجة أنها لم تسمح بتجارة حقيقية، ومن جهة أخرى، لم يكن اليهود يستطيعون ملك أراض خارج المدينة إلا تحت شروط أمن قلما كانت تتوفر. وبالعكس من ذلك، كان من بينهم العديد من بائعي الحبوب، الأمر الذي يبدو غريبا من أول وهلة، لعدم وجود علاقة بين اليهود وأهل البادية ولأنهم لم يملكوا قط أراض زراعية. إلا أن السر ينكشف عندما نفكر بأن اليهود كانوا يقرضون بالفائدة، سواء بفاس أو غيرها، ويستسلمون الغلات كرهائن عندما يعاملون أهل البادية. وغالبا ما كانوا يمتلكون زراعا يبيعونه، محتلين شيئا فشيئا رتبة هامة في زراعة الحبوب.

وأما تجارة المال، التي طالما كانت أحد موارد ثروة يهود فاس، فقد أصابها كسوف منذ تربع مولاي عبد العزيز على العرش، وذلك بسبب النشاط الناشئ للبنوك الأوربية. إلا أنه لم يزل هناك صيارفة ومرابون في ملاح فاس أوائل القرن العشرين، يذكر منهم روني-لوكير عشرين كانوا معروفين بمزاوتهم هذه المهنة.

ويمكن أيضا بيان صنف آخر من التجار غير معروف في المدينة وهم بائعوا الخمر والمشروبات الكحولية الذين كانوا يبيعون خمرا مصنوعة في الملاح، على مقتضى الشريعة العبرية، وماء الحياة المصنوع من التين أو الزبيب المقطر محليا، ويبيعون كذلك مشروبات كحولية أو كحولا مستوردة من أوربا (مثل الروم، والجنيف، والكونياك، إلخ...).

لكن أعظم التجار اليهود كانوا هم الذين يستوردون المنتجات الأوربية، كما هو الشأن في المدينة وكان لهم الاحتكار الفعلي للنفط الذي كان استعماله ينتشر بسرعة، بالإضافة إلى أنهم كانوا يستوردون من أوربا أقمشة، صوفية وقطنية، وأدوات البازار والخردوات، ومواد البقالة (كالسكر، والشاي، والشمع، والصابون، والتوابل، إلخ...).

وكان لهم طبعاً باعتبارهم بائعين بالجملة أو نصف الجملة احتكار المواد التي تباع في الملاح، لكنهم لم يكونوا يكتفون بهذا الميدان، بل كانوا يتوصلون أيضا إلى وضع بضاعتهم عند أصحاب الدكاكين في المدينة. كما استطاعوا أن ينافسوا التجار المسلمين حتى في أرضهم المختارة، وذلك بفضل اتصالاتهم بيهود طنجة التي كانت تمكنهم من الحصول على أثمان ملائمة.

لذلك لم يكونوا يقيمون بالملاح فحسب، ولكن حتى بالمدينة، وكان لبعضهم حجرات بفندق النجارين، والآخرون، والآخرون، وهم الأكثر عددا، كانوا يكترون مستودعات خصوصية (دار السلعة) في حي الديوان. ولم أسمع قط أن وجودهم في المدينة الإسلامية أثار أدنى حادث.

ومع ذلك، لم تكن حصتهم في تجارة فاس قوية جدا، بسبب المواقف

الصلبة التي اتخذها التجار المسلمون وتمسكوا بها. كانوا يعيشون في سعة، لكنهم لا يملكون ثروات عظيمة، إلا بعض الاستثناءات اليسيرة، إذ كانت هذه الثروات -على ما يبدو- من نصيب الذين استطاعوا أن يتجروا مع المخزن: وفي هذا الصدد، فإن أوبان يذكر أسرة أفلالو التي كانت قد حصلت على استغلال الكيف وطابة المسحوقة، وأسرتي بنسمحون وبنشامة اللتين عقدتا عدة صفقات لحساب المخزن. كانت الأمثلة من هذا النوع نادرة، ويتحدث روني لوكير، على النقيض من ذلك، عن أسر يهودية اضطرت في بداية القرن العشرين إلى مغادرة فاس، بعد أن أفلست في التجارة.^(١)

يهود فاس... الإسلام وارتكاب المخالفات التجارية في العهد المريني:

ولي أمر المدينة [فاس] أمير المومنين [...] يعقوب بن عبد الحق المريني رحمه الله تعالى وتمهدت الدولة المرينية، وأوقع المسلمون باليهود الواقعة المعلومة العظمى سنة أربع وسبعين وستمئة بسبب أمور أدت إلى استباحة دمائهم وأموالهم. فأسلم في تلك الواقعة من أسلم منهم [...] ثم إن الفريق الذي أسلم منهم احترف بعضهم بحرف المسلمين وبعضهم عمر في الأسواق بالقيسارية وغيرها من أسواق المدينة فظهر منهم الغش والخيانة والمكر والخديعة ومعاملات الربى، بحيث يجعل الواحد منهم في حانوته ما هو أعلى وما هو أدنى ويرى للمشتري الأعلى ويتردد (كذا) معه في الثمن الذي يقع به البيع ثم يحوز من يده ما أراه من الأعلى ويرده لحانوته، ثم بعد عقد البيع معه يعطيه الأدنى غير الذي أراه له أولاً، والمشتري غير العارف يظنه أنه هو الذي اشترى منه أولاً، وكثرت خدائعهم للناس في المعاملات مع الحاضر والبادي

(١) فاس قبل الحماية، ج. ١، ص. ٥٤٦-٥٤٩.

وصارت تحدث منهم نوازل لا يوجد لها في الشرع نص، وكثرت في ذلك الأسئلة والأجوبة عند العلماء وتعددت الدعاوى عليهم في ذلك من أهل الحواضر والبوادي، وتكررت الخصومات في ذلك على قضاة فاس حتى أشغبوهم، وصار العلماء ينهاونهم عن ذلك فلم ينتهوا. وحيث اطلع الأمراء على مكرهم وغشهم وتعنتهم وبحثوا عن جميعهم، فلم يوجد منهم أحد إلا وقد تكرر ذلك منه. فهتمت الناس بالخروج من الأسواق والحرف من أجلهم، لما أحدثوا في الدين ما ليس منه قبحهم الله وعزم قاضي فاس على التخلي عن القضاء بسبب ما ينزل به من قبلهم من الخدع، التي لم يجد لها وللحكم عليها نصا فطلب من السلطان أبي يوسف أن يقيه من القضاء بسبب ذلك.^(١)

كان مما عثر عليه لبعض اليهود لعنهم الله أنه ألفي بيده حباب من شعير أعدها ليزن بها، فاتمه أحد النبلاء لثقل أحس فيها، فاخترها، فإذا في جوفها إن اليهودي أطراف من حديد ركزها فيها بعد أن رطبها بالماء، ثم جففها، فاشتدت على تلك الحال. وكان معها شعير سالم من ذلك، فكان هذا اليهودي إن قبض لنفسه وزن بالتي فيها أطراف الإبر [لثقل وزنها]، وإن وزن لغيره وزن بالتي لا إبر فيها، وقد يسمى هذا في لغاتهم بالمعمرة، وكذلك يجعلون في قلب النواة من الخروب وغيره.^(٢)

التجار اليهود وضريبة المرور في ق ١٦ م:

أم العفن قصر رديء بعيد عن سجلماسة بنحو خمسة وعشرين ميلا، بناه الأعراب في فلاة وعرة على الطريق المؤدية من سجلماسة إلى درعة. وأسواره

(١) قضية المهاجرين المسمون بالبلدين، ص ٥٤-٥٧.

(٢) أبو الحسن الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص ٨٢.

من حجر أسود كأنه الفحم. يقيم فيه دوما حرس بعض الأمراء الأعراب، ولا يستطيع أحد أن يمر دون أن يؤدي ربع مثقال عن كل جمل، ويفرض نفس المبلغ على كل يهودي.

مررت من هناك ذات مرة مع أربعة عشر يهوديا، ولما سألنا الحارس عن عددا أسقطنا شخصين، فعدنا الحارس وأراد أن يحتفظ باثنين منا، فأكدنا له أننا مسلمان وأن الباقي يهود، وللتثبت من ذلك طلب منا نحن الاثنين أن نقرأ الفاتحة، ثم اعتذروا لنا وخلوا سبيلنا.^(١)

إنشاء اليهود لمؤسسات مصرفية في أوأخرق. ١٩ ومطلع ق. ٢٠م.

بمجرد انتهاء عهد مولاي الحسن، أنشأ بعض اليهود الموسرين بطنجة مؤسسات مصرفية سرعان ما أصبح الفاسيون زبناء لها. وكان أشهرها بفاس مؤسسات موسى وإسحاق ناهون، مراسلي بنك إسبانيا، وموسى باريانطي، وحاييم بنشيمول، المعتمد القنصلي الفرنسي وممثل شركة باكي، وإبراهام س. ناهون وشركته المدعوة "ناهون الصغار".

ولم يكن هؤلاء المصرفيون يكتفون بزبائنهم من تجار فاس، بل كانوا يؤدون خدمات هامة للمخزن الذي كان في مقابل ذلك يمدهم بتأييد فعال عندما كانوا يلجؤون إلى العدالة الشريفة. ولما بدأت البنوك الأوربية تستقر بالمغرب، ابتداء من دولة مولاي عبد العزيز، فضل المخزن اللجوء إليها. وكانت البنوك اليهودية بطنجة في اتصالات تجارية مستمرة مع فاس، تقوم مقابل عمولة من ١/٢ % وبتحويل اعتمادات إلى حساب الموردين الأوربيين من طرف التجار

(١) الوزان، ج. ٢، ص. ١٢٨-١٢٩.

الفاسيين. وكان لها مراسلون لديهم، أشهرهم مسعود ليفي بنشيطون المدعو "زلاشي" ممثل بنك موسى إسحاق ناهون الذي أنجز شيئاً فشيئاً، بفاس ذاتها، أهم العمليات التي كانت تنجز قبل ذلك بطنجة.

وقد أدخل هؤلاء المراسلون إلى الوسط التجاري بفاس بعض معاملات القرض الأوربي، لاسيما الكمبالية والشيك. وأسهم إنشاء البنوك الأوربية بطنجة في نشر هذه المعاملات إسهاماً أكثر. وفعلاً، فإن المصرف الوطني للحسم أحدث فروعاً بطنجة، والدار البيضاء والصويرة سنة ١٨٩٦، متبوعاً في ذلك بالشركة الجزائرية سنة ١٩٠٤، ودوتش أوريانط بنك أكتينكسلشافط سنة ١٩٠٦، إلخ...

ولما لم يكن لهذه البنوك فروع بفاس، فإن البريد الألماني والبريد الفرنسي كانا يتكفلان بتحصيل كمباليات التجارة الصغيرة والمتوسطة الأهمية مقابل عمولة ١٪. وعند ذلك ظهرت الأوراق البنكية بفاس.

ردود الفعل عند الفاسيين: لم تقع كل هذه التجديدات دون إدخال بعض الإضطرابات على التجارة التقليدية للعاصمة القديمة. فقد أقيم فيها شيئاً فشيئاً سوق حقيقية للقيم: كان يسيرها سياسة إسرائيليون يقضون وقتهم بسوق العطارين، وهم يتفاوضون بين تجار مسلمين ويهود في شراء النقود والمعادن وبيعها، لا سيما الحوالات والشيكات والأوراق البنكية، مؤلفين حرفة حقيقية.^(١)

(١) فاس قبل الحماية، ج. ١، ص. ٤٢١-٤٢٢.

خاتمة

رغم ما تثيره إشكالية ضعف المادة المصدرية وتناثرها، فقد حاول البحث رسم صورة عامة عن اليهود في تاريخ المغرب، إذ نؤكد على توزيعهم في مناطق مختلفة، مع استئثار مدينة فاس بالحظ الأوفر، حتى قيل "فاس مدينة بلا ناس"، كناية عن ثقل الوجود اليهودي بها.

كما عملت قدر المستطاع إبراز الحياة الاجتماعية لليهود في تاريخ المغرب، خاصة تلك المرتبطة بالعلاقات بين الفئات الاجتماعية اليهودية ونمط العيش والمسكن واللباس والأطعمة وطقوس الأفراح والأتراح، والتي تتشابه فيها أحيانا مع المسلمين وتختلف أحيانا أخرى. وتجلت لنا بوضوح أوجه صور والاتصال والتلاقح والأخذ والعطاء الثقافي والاجتماعي، ثم صور القطيعة والانفصال بين اليهود والمسلمين المغاربة، عبر متغيرات الزمن والواقع والأحداث.

في إطار المستوى الاجتماعي، تابعنا القضايا التي تثيرها فتاوى الفقهاء في منهج التعامل مع اليهود داخل المجتمع المغربي المسلم، نموذج فتوى المغيلي وما أثارته من ردود من لدن الفقهاء استنادا إلى مرجعية الكتاب والسنة، وذلك بتجرد وجرأة علميين كاملين، ووفق مقاربة ورؤية منهجية تأخذ بعين الاعتبار حقوق أهل الذمة مقابل التأكيد على ضرورة التزامهم بالواجبات.

حول اليهود وعلاقتهم بالسلطة والاقتصاد، سلط البحث الضوء على مكانة اليهود في هرم السلطة وتزايد النفوذ الاقتصادي في بعض العهود

والأزمنة التاريخية، خاصة أواخر بني مرين ... إذ تم التأكيد على ازدواجية العلاقة بين اليهود والسلطة، فالحماية وربما المناصب السياسية السامية مقابل المال، لكن يحدث أن تحتل هذه القاعدة، خاصة عند حاجة أحد الحكام الملحة لتثبيت أركان حكمه، فتتعرض عندئذ الطائفة اليهودية للإبتزاز وأخذ الأموال، وربما القتل والتنكيل، ولو من خلال استناد الحاكم على مبرر معين للقيام بتصرفات قاسية ضدها، من مثل المكر والغش والتدليس والخداع التي كانت محترفة فيه. كما تتدخل السلطة الحاكمة أحيانا لفرض لباس وممارسة نشاط اقتصادي معين على اليهود لسبب أو لآخر. وفي المقابل استغل اليهود المناصب (خاصة في العصر المريني) لممارسة الاستبداد والظلم والابتزاز ... كما استفدوا من الظروف الدولية المتمثلة في الضغوط الاستعمارية على المغرب في ق.١٩م للحصول مع مزيد من الامتيازات التي جاءت ضدا على مصالح البلاد.

مارس اليهود المغاربة أنشطة اقتصادية متعددة عبر تاريخ المغرب، خاصة تلك التي تذر عليهم أموالا طائلة، كصياغة الذهب والفضة والتجارة في أنواع معينة من السلع، حتى المحرمة منها. مما كان يعرضهم أحيانا للتشهير والتضييق والانتقام خاصة من طرف العامة.

والله ولي التوفيق.